

نشأة وتطور نظريات الإعلام

- مقدمة :

لقد "عرفت شعوب العصور الوسطى في أوروبا الإعلام الديني فقط إلى أن ظهر المذهب البروتستاني حيث وجدت الكنيسة الكاثوليكية نفسها مضطرة إلى شن إعلام مضاد ضد الكنيسة البروتستانية واعتبرها خارجة عن حدود الدين... فقد تم تكليف رجال الدين من كرادلة وقساوسة بأمر من الباب غريغوري الثالث عشر للقيام بمهام رجال الإعلام في مواجهة خطاب الكنيسة البروتستانية وإعادة الثقة إلى الكنيسة الكاثوليكية"¹، وهكذا بدأ التفكير في توظيف الإعلام لخدمة أفكار والاتجاهات معينة، بالاستعانة بالنظريات الفلسفية لتفسير ظاهرة الإعلام، وبالتالي التحكم فيها وتسخيرها لتكريس مختلف المبدأ والأفكار.

و "تمت بلورة نظريات فكرية وسياسية للإعلام، لأول مرة عام 1959، عندما بادر ثلاثة أساتذة جامعيون في الولايات المتحدة الأمريكية إلى صياغة عدد من النظريات، تستند مضامينها إلى طبيعة البنيات السياسية التي سادت خلال حقبات متتالية من تاريخ الإنسانية، مارس الإعلام فيها نشاطا ينسجم في جوهره مع تلك البنيات. كما بادروا إلى تقديم نظرية جديدة وطالبوا بضرورة تطبيقها، نتيجة اقتران جملة من المستجدات، في أعقاب الحرب العالمية الثانية، يرتبط بعضها بالتمركز الهائل الذي عرفه الإعلام الجماهيري، وبفاعليته المعلوماتية الكبيرة وبتعاظم وظيفته الإعلانية"².

ومع ظهور "الطباعة على يد غوتنبرغ عام 1450 انتقل الإعلام نقلة نوعية ساهمت في زيادة الوعي والتنوير في أوروبا، حيث مهدت الطريق لبروز الثورتين الصناعية والتكنولوجية، وأصبح للإعلام دور متميز في المجتمعات الغربية من خلال انتشار الكتاب والصحافة حتى وصل إلى جميع أنحاء العالم، وأصبح لع نظرياته وفلسفته الخاصة به"³، التي وضعها العلماء والباحثين لتتطور هذه النظريات عبر التاريخ الإنساني وتطورت معها وسائل الاتصال والإعلام الجماهيري.

ظهرت في أوروبا خلال القرن السادس عشر النظريات الإعلامية الأربعة، وكانت على النحو التالي:

1- نظرية السلطة أو النظرية الاستبدادية:

1- خضر إبراهيم حيدر : الميديا مفهومها المعاصر وعلاقتها بالإعلام الكلاسيكي، ط 1، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، العتبة العباسية المقدسة ، 2018 ، ص 79.

2- فريال مهنا : علوم الاتصال والمجتمعات الرقمية ، ط 1، دار الفكر ، دمشق ، 2002 ، ص 72.

3- خضر إبراهيم حيدر : الميديا مفهومها المعاصر وعلاقتها بالإعلام الكلاسيكي، المرجع السابق ، ص 79.

بخصوص نظرية السلطة أو النظرية الاستبدادية فقد ظهرت " في القرنين السادس والسابع عشر الميلادي ، متزامنة مع ظهور الطباعة وانتشار الصحف المطبوعة، وذلك في عهد الملكيات والنخب الحاكمة في أوروبا. فقد كانت الصحافة تمثل الذراع الإعلامي للدولة، واللسان الناطق باسم الحكومة"¹. وتنظر هذه النظرية "إلى الفرد بوصفه تابعاً للدولة، وأنّ أمور الدولة ومقاليدها تكون في يد الحاكم الذي يستمد قوته ونفوذه من الحق الإلهي وبالتالي عادة ما تكون الدولة هي الحاكم، وهما معا لهما الحق في تنظيم كافة أمور الحياة في الدولة وتوجيه أفرادها ومؤسساتها، وتعتبر الصحف في ظل هذه النظرية أداة لنشر أفكار الدولة وتوجيهاتها باعتبارها أداة أو وسيلة لنقل المعلومات وتحقيق غايات الدولة"². وقد كان "أول من أطلق هذا الاسم على النظرية هم سايرت وشرام وبيترسون في تصنيفهم لنظريات الاتصال الجماهيري. فقد أوضحوا أنّ الرؤية الإعلامية في مفهوم نظرية السلطة تنطلق من الآتي :

- تكون وسائل الإعلام خاضعة لسلطة النخب الحاكمة.
 - يمنع النظام الحاكم تدخل الإعلام في السلطة، سواء بالنقد أو التوجيه.
 - يعمل الإعلام على تقوية النظام الحاكم.
 - يعمل الإعلام على تقوية النظام الحاكم"³.
- وبهذا فرضت النظرية السلطوية أفكارها بقوة، لتجعل من الإعلام الحارس الأمين للحكومات والساھر على بقاءها في مقاليد الحكم لأطول مدة ممكنة، متخذة من الرقابة المشددة أقوى سلاح لقمع أي نقد يوجه إلى الأنظمة السياسية.

2- نظرية الحرية :

ظهرت نظرية الحرية محاولة إيصال الحقيقة إلى الشعب وبدون مقص الرقابة، وقد استمدت نظرية الحرية مرجعيتها من الأسس الفكرية للفلسفة الليبرالية، التي نظّر لها كل من جون ستيوارت ميل وجان جاك روسو وجون لوك، ومن أعقبهم من الفلاسفة والمفكرين الغربيين، الذي توسعوا في الأطروحات الفكرية لهؤلاء الفلاسفة الثلاثة. فقد بدأت قضية الحرية تأخذ مجراها، بأسلوب تنظيمي فلسفي في الحياة، عقب الثورة الصناعية في أوروبا، وذلك كاتجاه للابتعاد عن الدين، المتمثل في تسلط الكنيسة، والتزاماتها بالنسبة للحياة

1- محمد بن سعود البشر : نظريات التأثير الإعلامي ، ط1 ، العبيكان للنشر ، الرياض ، 2014 ، ص 67.

2- محمد عبد الحميد : نظريات الإعلام واتجاهات التأثير، ط2 ، عالم الكتب ، القاهرة ، 2000 ، ص 339.

3- محمد بن سعود البشر : نظريات التأثير الإعلامي ، المرجع السابق ، ص 67 ، 68.

الاجتماعية والاقتصادية في أوروبا، وانتقلت هذه القضية إلى مجالات السياسية والفكر والأدب، تدعو إلى تحررها، وانطلاقها مما كانوا يظنون أنّها قيود تحدّ من تقدمها"¹.

يمكننا إذن أن نقول أنّ "نظرية الحرية في الإعلام الجماهيري وريثة فلسفة الأنوار والاقتصاد السياسي الليبرالي، وهي تعبّر في نهاية المطاف، عن رفض مبدأ السلطة، وعن أن لا أحد يمكنه أن يحتكر الحقيقة، التي تعرف بأنّها تطابق للفكر مع الوقائع الملحوظة، امتيازاً لفرد واحد أو لطبقة واحدة، وتعارض هذه النظرية أية محاولة لحسم موضوع الحقيقة عن طريق سلطة ما"².

وخلال "الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين، رأي الغرب أنّ ثمة حاجة لتجديد الفكر الليبرالي وتجاوز المفهوم الليبرالي القديم للإعلام الذي أصبح تقليدياً وأورثودوكسياً، فعمد إلى استبدال مفهوم حرية الإعلام بمفهوم حق الإنسان في الوصول إلى المعلومات، وقد استمرت هذه الإرهاصات الفكرية التجديدية خلال فترة ما بين الحرب العالمية الثانية، إلى أن تبلورت على مدى عقد السبعينات، حول مفهوم حق الإنسان في الاتصال"³.

في هذا السياق نجد أنّ الباحثون والخبراء والمهنيون قد نجحوا "في انتزاع تشريعات متعددة في الدساتير السياسية والإعلامية الغربية تضمن حرية الرأي للمواطن في المجتمعات الغربية. فالمادة الأولى من الدستور الأمريكي تنص على أنّ (لا يجوز للكونجرس لأن يضع أي قيود تحد من حرية الصحافة)، وهو ما فتح الباب واسعاً لحرية الرأي والتعبير في المجتمعات الغربية، والمجتمع الأمريكي على وجه الخصوص. وتبذل التشريعات والقوانين قامت نظم الإعلام في المجتمعات الغربية على مفهومين رئيسيين يكفلان حرية الرأي والتعبير وهما: مجتمع السوق Market Society، ومبدأ المشاركة Participation"⁴.

ونقصد بسوق المجتمع "أنّ المجتمع يمثل سوقاً حرة للأفكار... والفلاسفة الليبراليون الذين أسسوا لهذا المصطلح في مجتمعاتهم يقولون: إنّ المجتمع لا بد أن يكون بمثابة السوق الحرة للأفكار، وما هو رديء يصاب بالكساد ويضمحل... ومعنى المشاركة أنّ المواطنين هم أعضاء مشاركون في العملية الديمقراطية، ومن

1- محمد بن سعود البشر: نظريات التأثير الإعلامي، ط1، العبيكان للنشر، الرياض، 2014، ص 17، 18.

2- فريال مهنا: علوم الاتصال والمجتمعات الرقمية، المرجع السابق، ص 75.

3- فريال مهنا: علوم الاتصال والمجتمعات الرقمية، المرجع نفسه، ص 75.

4- محمد بن سعود البشر: نظريات التأثير الإعلامي، المرجع السابق، ص 20.

طرائق مشاركتهم الفاعلة ضمان حريتهم في الرأي والتعبير عن كل ماله علاقة بحياتهم الخاصة وكل ما له علاقة بشؤون المجتمع الذي يعيشون فيه بالوسائل التي يريدونها"¹.

و "في أعقاب الحرب العالمية الثانية وضعت العقيدة الليبرالية موضع نقاش، من خلال مفهوم الحرية زمن خلال مفهوم الديمقراطية. فالماركسية التي عرفت آنذاك انتشارا كبيرا، أثار شكوكا جدية حول مفهوم الحرية، معتبرة أنّ الحرية في مفهوم العقيدة البرجوازية ليست حقيقية وإّما شكلية، إذ ما فائدة الحرية الحقيقية إن لم يكن الإنسان يمتلك وسائل ممارستها، الحرية تصبح عقيمة عندما لا نستطيع التمتع بها فعليا، ولا ريب أنّ إلقاء الفكر الماركسي الضوء على التناقض القائم بين الجانب الحقوقي والجانب الواقعي في هذه المسألة، لفت إلى أهمية توافر شروط عديدة تحدد ممارسة الحرية على أرض الواقع"².

لكن المبالغة في تحرر الإعلام من القيود أدى بشكل كبير إلى اقتحام الحياة الخاصة للناس ونشر الإشاعات والأكاذيب ومضامين إعلامية جريئة، تهدف فقط لنشر الجرائم والعنف والجنس، حجتها حرية التعبير.

3- نظرية المسؤولية الاجتماعية :

جاءت نظرية المسؤولية الاجتماعية، لينتهي معها " مفهوم كان يعدّ أحد أهم مقدسات النظرية الليبرالية، أي مفهوم ترك قوانين السوق تتحرك بحرية تامة من قبل الدولة... حتى في الولايات المتحدة التي لم تشأ الدولة فيها أن تتدخل في النشاط الإعلامي برمته، تم تشكيل لجان مراقبة أهمها لجنة الاتصال الفدرالية المسؤولة فقط أمام الكونغرس... ولجنة كارنيجي التي شكلها الرئيس جونسون عام 1964 والتي قدمت تقريرا يطالب الكونغرس بإنشاء مكتب فدرالي للتلفزة العامة. وقد تم تشكيل المكتب حيث أخضع لقوانين فدرالية، وجرى تحريره من هدف الربح واستقل تماما عن الحكومة"³.

و "في ظل تزايد الوعي المتنامي بفشل سوق الأفكار الحرة بين الساسة والإعلاميين وبخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية في حماية المجتمع والجماعات والأفراد وتلبية حاجياتهم قام هنري لوس Henery R.Luce بتحويل هذا الوعي والاهتمام إلى برنامج عملي. فقد قام لوس - صاحب شركة التايم - بتمويل دراسة أجراها البروفيسور روبرت هوتشنز Robert Hutchins رئيس جامعة شيكاغو - تهدف إلى التعرف على الوضع الراهن وتأثيره على مستقبل الصحافة، وذلك في عام 1942. فشكل هوتشنز على الفور لجنة من

1- محمد بن سعود البشر : نظريات التأثير الإعلامي ، المرجع السابق ، ص 21 ، 22.

2- فريال مهنا : علوم الاتصال والمجتمعات الرقمية ، المرجع السابق ، 2002 ، ص 76.

3- فريال مهنا : علوم الاتصال والمجتمعات الرقمية ، المرجع نفسه ، 2002 ، ص 80.

عشرة أساتذة جامعيين كان من بينهم مساعد وزير خارجية سابق، وعرفت هذه اللجنة باسم لجنة هوتشنز. كانت مهمة هذه اللجنة مساعدة هوتشنز في تنفيذ هذه الدراسة. وفي عام 1948 أصدرت اللجنة تقريراً كان عنوانه : صحافة حرة ومسؤولية¹. لذا يجب أن تراعي الصحافة الدقة وتحري الصدق، بمعنى أنّ العمل الصحفي يجب أن يمارس بحرية مسؤولية.

4- النظرية الشيوعية :

لقد "شهد الربع الأول من القرن العشرين، ميلاد نظرية الصحافة الشيوعية والتي يعدّ كارل ماركس الأب الروحي لها... متأثراً بفلسفة زميله الألماني جورج هيغل. وترتكز هذه النظرية على أنّ وظائف وسائل الإعلام في المجتمع الشيوعي هي نفسها وظائف الجهاز الحاكم أي دعم بقاء وتوسع النظام الاشتراكي، وأنّ هذه الوسائل يجب أن توجد لنشر السياسة الاشتراكية، وليس لها أن تبحث عن الحقيقة. وفي ظل هذه النظرية ، فإنّ وسائل الإعلام الجماهيرية تعد أدوات للحكومة، وجزءاً لا يتجزأ من الدولة، والدولة تملك وتقوم بتشغيل هذه الوسائل، والحزب الشيوعي هو الذي يقوم بالتوجيه"².

كما "تفترض النظرية الشيوعية، أنّ الجماهير أضعف، وأجهل من أن تحاط علماً بكل ما تقوم به الحكومة، ووسائل الإعلام يجب أن تعمل دائماً من أجل الأفضل والأفضل عادة هو ما تقوله القيادة ويتفق بطبيعة الحال مع خط النظرية الماركسية ومن ثم، فإنّ كل ما تفعله وسائل الإعلام كي تدعم وتساهم في إنجاح الشيوعية يعد أخلاقياً، في حين أنّ كل ما تفعله لعرقلة الإنجاز الشيوعي يعد غير أخلاقي. استخدمت النظرية الشيوعية مفردات كثيرة للدعاية، أكثر منها للتنظير العلمي، كشعارات تكافؤ الفرص، والمساواة والعدالة الاجتماعية، والتقدم الثقافي ورفع الاستغلال عن طبقات الشعب العامل"³.

ويمكن تلخيص أهم عناصر هذه النظرية إلى ما يلي :⁴

- جرى تطبيقها في الاتحاد السوفييتي في بدايات القرن العشرين وفي دول أوروبا الشرقية عقب الحرب العالمية الثانية، وامتد تأثيرها إلى مناطق عديدة في العالم النامي.

1- محمد بن سعود البشر : نظريات التأثير الإعلامي ، المرجع السابق ، ص 25.

2- عبد الرزاق الدليمي : نظريات الاتصال في القرن الحادي والعشرين ، ط1، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع ، عمّان ، 2016 ، ص 82.

3- عبد الرزاق الدليمي : نظريات الاتصال في القرن الحادي والعشرين ، المرجع نفسه ، ص 82.

4- فريال مهنا : علوم الاتصال والمجتمعات الرقمية ، المرجع السابق ، 2002 ، ص 82 ، 83.

- تنبع من الأيديولوجية الماركسية - اللينينية - الستالينية، ممتزجة بفلسفة هيغل والفكر الروسي في القرن التاسع عشر.
 - مهمة الإعلام في هذه النظرية تتجلى في الإسهام في نجاحات النظام الاشتراكي السوفييتي واستمراره، وبكل شكل خاص، في ديمومة دكتاتورية الحزب الشيوعي.
 - تحظر النظرية على الإعلام توجيه أي نقد لأهداف الحزب الإستراتيجية.
 - الملكية العامة، ولا وجود لملكية خاصة في الإعلام جميعا.
 - الإعلام مملوك للدولة، وتسري الرقابة عليه بشكل صارم.
- وعموما يمكن القول أنّ "النظرية الشيوعية الشمولية لم تأت من الفراغ، بل هي نتاج تطوير النظرية السلطوية... لكن النظرية الشمولية الشيوعية ذهبت أبعد من ذلك يوم أطبقت بالكامل على وسائل الإعلام وجعلتها تحت تصرفها، أي خلقت مركزية إعلامية قوية"¹.

1- كاظم المقدادي : "المخاطر المرتبطة بأخلاقيات العمل الإعلامي" ، الباحث الإعلامي، (العدد الثالث) ، خيزران ، 2007 ، ص 53.